

موقف روسيا الاتحادية من إستفتاء إقليم كردستان العراق عام ٢٠١٧

م.م. حسام محمد خضير (*)

الملخص

يتناول البحث موقف السياسة الخارجية الروسية من إستفتاء إقليم كردستان حول الانفصال عن الحكومة الاتحادية في بغداد. فقد تميزت الإستراتيجية الروسية بالغموض وعدم تبني رؤية واضحة تجاه قضايا الشرق الأوسط، ومن ضمنها القضية الكردية (مدار البحث) ومحاولة الانفصال غير الشرعية في العراق. إذ دعت روسيا الاتحادية الحكومتين الكردستانية والإتحادية إلى حل النزاع بالأساليب الدبلوماسية السلمية، وأشارت إلى ضرورة الحفاظ على وحدة الأراضي العراقية. إلا أنها (روسيا الاتحادية) لم تتوان عن إبرام الإتفاقيات الثنائية وتوقيع العقود الإستثمارية مع حكومة إقليم كردستان في مجال الطاقة وإستخراج النفط دون الرجوع إلى الحكومة الاتحادية في بغداد، التي عدت هذا الإجراء غير قانوني ومخالف لبنود الدستور العراقي. وبذلك تم التوصل إلى الإستنتاج الأهم في الدراسة، ألا وهو، عدم وضوح الموقف الروسي من مسألة إستفتاء كردستان، إذ بقيت محافظة على الموقف الحيادي ما بين القبول والرفض، في الوقت الذي جوبه به الإستفتاء آنفاً بانتقادات عدة من جانب الدول الإقليمية والغربية ودول المنطقة.

Abstract

This research aims to the position of the Russian foreign policy on the referendum of the Kurdistan region on the separation from the federal government in Baghdad. The Russian strategy is ambiguous and does not adopt a clear vision of Middle Eastern issues, including the Kurdish issue and the attempt to disengage from Iraq. The Russian Federation called on the Kurdish and Iraqi Governments to

(*) مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية، جامعة بغداد.

resolve the dispute through peaceful diplomatic means and pointed to the need to preserve the territorial integrity of Iraq, meanwhile the Russian Federation has not stopped the conclusion of bilateral agreements and the signing of investment contracts with the Kurdistan Regional Government in the field of energy and oil extraction without reference to the federal government in Baghdad. Where the Iraqi government claimed this action is illegal and contradictory to the provisions of the Iraqi constitution. In conclusion, the study showed the lack of clarity of the Russian position on the issue of the referendum of Kurdistan which, Russia has maintained a neutral position between acceptance and rejection while the referendum was rejected and denied from several regional and Western countries.

المقدمة

تحتل الحركة القومية الكردية، في الوقت الحاضر، بأهمية خاصة وكبيرة في دول غرب آسيا من بين سلسلة واسعة ومتنوعة من مشاكل البنية العرقية - الطائفية والاجتماعية والسياسية في الشرقين الأوسط والأدنى، إذ أن الأهمية الجيوسياسية والجيواقتصادية والجيواستراتيجية لإقليم كردستان العراق باتت واضحة من خلال كتابات ودراسات العديد من الخبراء المحليين والأجانب، وفي مقدمتهم المختصين بالعلوم السياسية والمؤرخين - المستشرقين وغيرهم. فمنذ العصور القديمة يقع الأكراد في قلب أحداث السياسة الإقليمية والدولية، لأنهم غالباً ما كانوا يمثلون طرف للعلاقات الدولية، وذلك عن طريق مشاركتهم الفاعلة في الحروب العثمانية - الصفوية في القرنين السادس عشر والسابع عشر. أما في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كانت دول أوروبا الغربية كثيراً ما تستخدم الشعب الناطق باللغة الكردية لممارسة الضغط على تركيا وإيران، وتحقيق الهيمنة في الشرق. وفي منتصف القرن العشرين مارس كل من العراق وإيران الضغوطات المتبادلة والمؤثرة على الأمن القومي الداخلي لكلا البلدين، وذلك عن طريق استخدام الورقة الكردية. ففي كل بلد من البلدان الآتية: العراق وسوريا وتركيا وإيران، توجد قوى سياسية تُعبر عن مصالح الأقلية القومية الكردية.

نتيجة لما تقدم، شهد الشرق الأوسط والعالم في الخامس والعشرين من شهر سبتمبر/أيلول عام ٢٠١٧ حدثاً تاريخياً مؤثراً بشكل كبير على مستقبل المنطقة - الإستفتاء حول إستقلال كردستان العراق عن الحكومة الاتحادية في بغداد، وقد كشفت نتائج هذا الإستفتاء

(غير المُعترف بها من جانب الحكومة الاتحادية) عن رغبة الأغلبية الساحقة من الكرد العراقيين بالإنفصال عن سلطة بغداد، ودعمهم لتأسيس دولة كردية مُستقلة، وقد جوبه هذا الاستفتاء بجملة واسعة من الإنتقادات والإعتراضات والتحذيرات الداخلية والإقليمية والدولية التي عدته بغير الشرعي والمناقض لأحكام الدستور كونه يعمل على إضعاف الوحدة الوطنية العراقية.

إن الهدف من الدراسة هو أن نبين موقف السياسة الخارجية الروسية من الإستفتاء المذكور وبذلك يكون بإستطاعتنا الإجابة عن العديد من التساؤلات، ولعل من أبرزها: هل تؤيد روسيا الاتحادية إستقلال كردستان عن بغداد في ظل تحذيرات الولايات المتحدة الأمريكية وتركيا وإيران للإقليم من خطورة وعواقب إقامة دولة كردية مستقلة؟ هل لروسيا مصالح مشتركة وعلاقات متبادلة (سياسية وإقتصادية وثقافية) مع العراق، الأمر الذي يدفعها لتأييد وحدة الأراضي العراقية؟.

تنطلق فرضية الدراسة من أن روسيا الاتحادية لا تنتهج سياسة خارجية ثابتة، ولا تمتلك موقف مستقر من القضايا العالقة في الشرق الأوسط عامةً، ومن القضية الكردية خاصةً والتي هي مدار بحثنا. وسنوضح في صفحات الدراسة اللاحقة إمكانية إثبات هذه الفرضية. أعتمدت الدراسة على المناهج الأتية: المنهج التاريخي والمنهج الوصفي ومن ثم المنهج التحليلي. وذلك سعياً منا للوصول إلى حصيلة إستنتاجات نوعية وفي الوقت نفسه موجزة ومبسطة لموضوع البحث المطروح.

تتألف هيكلية الدراسة من مقدمة ومبحثين (مدرجين أدناه) وخاتمة (إستنتاجات):

١. المبحث الأول بعنوان (روسيا والأكراد: نظرة تاريخية لنشوء وتطور العلاقة): يختص المبحث الأول بدراسة طبيعة ومراحل العلاقة الروسية - الكردية ذات العمق التاريخي في المنطقة الآسيوية وذلك بدءاً من حقبة الإتحاد السوفيتي، وعلى التعاقب وريثها الأكبر (روسيا الاتحادية) ولغاية المرحلة التي سبقت الحرب ضد الإرهاب وضد تنظيم داعش في منطقة الشرق الأوسط.

٢. المبحث الثاني بعنوان (الموقف الروسي من القضية الكردية وإستفتاء إقليم كردستان عام ٢٠١٧): سنتناول في هذا المبحث تتبع موجز للعلاقات الروسية - الكردية في مرحلة الحرب ضد تنظيم الدولة الإسلامية الإرهابي (داعش)، ومن ثم نتابع موقف روسيا الاتحادية من قرار أربيل بالإستفتاء حول الانفصال عن بغداد في ظل سعيها في الحفاظ على مسار وطبيعة العلاقات الدولية التي تربط موسكو بالعراق كحكومة مركزية في بغداد من جهة، وحكومة إقليم كردستان في أربيل من جهة أخرى.

المبحث الأول: روسيا والأكراد: نظرة تاريخية لنشوء وتطور العلاقات أولاً - المرحلة السوفيتية

إعترف الاتحاد السوفيتي في العام ١٩٢١ بالقومية الكردية، وفي العام ١٩٢٣ تم تأسيس إقليم كردستان في جمهورية أذربيجان الاشتراكية وأصبحت عاصمتها في مدينة لاجين، الواقعة على الحدود مع جمهورية أرمينيا الاشتراكية، وهذه المدينة تقع داخل منطقة ناكورنو كاراباخ، بعد أن ألحقت بأرمينيا المستقلة منذ العام ١٩٩٢، وسرعان ما أصبحت هذه المنطقة الكردية السوفيتية والتي عرفت بإسم (كردستان الحمراء) بمثابة موطن للحركة القومية الكردية للأكراد في العراق والذي كان في ذلك الوقت تحت الإنتداب البريطاني، ولأكراد سوريا أيضاً التي كانت تحت الإنتداب الفرنسي آنذاك، وكذلك الحال بالنسبة لأكراد تركيا وإيران، ووفقاً لمعطيات إحصاء السكان لعام ١٩٢٦، شكل الأكراد السوفيت ما يقارب ٧٠ ألف نسمة، منهم ٦٧ ألفاً كانوا يسكنون في القوقاز، وأقل بقليل من ثلاثة ملايين نسمة كانوا من سكان آسيا الوسطى، وبحسب تقديرات المصادر الأخرى، فقد شكل عدد سكان الأكراد السوفيت ١٦٠ ألف نسمة، إلا أنه في كلا الحالتين، فإن الأكراد السوفيت كانوا معدودين، في حالة تمت مقارنتهم مع المجتمعات الكردية في الشرق الأوسط آنذاك، والذين كان قد بلغ عددهم عدة ملايين نسمة، علماً بأن الأكراد السوفيت في عشرينيات القرن الماضي كانوا يتمتعون بحكم ذاتي واسع بثقافته ولغته، إلا إنهم تعرضوا، في الثلاثينيات من القرن الماضي، لسياسة فرض إقرار السلطة والعقيدة السوفيتية والتي تمثلت بشكل كبير في ترويس أسماء^(١) الألقاب

والسلالات، باستثناء الكرد الأيزيديين الذين كانوا يقطنون القوقاز، وأستثنى كذلك من هذه السياسة الأكراد الذين إستقروا في تركمانستان، إذ أنه تم ترحيل الأغلبية الكردية إلى مناطق آسيا الوسطى، وفي مقدمتها، كازاخستان وأوزبكستان وقرغيزيا^(٢).

بعد إنتهاء الحرب العالمية الثانية، عملت موسكو، وسط ظروف الإحتلال الإنكليزي-السوفييتي لإيران، على دعم الأكراد لإقامة جمهورية مهاباد الكردية ذات الحكم الذاتي والتي قد أعلن عنها رسمياً في كردستان الإيرانية في شهر يناير/ كانون الثاني عام ١٩٤٦، وعلى خلفية ذلك، إنتقل (مله مصطفى بارزاني)^(٣) من العراق إلى إيران وأصبح وزيراً عسكرياً ضمن التشكيل الجديد، إلا أن هذه الجمهورية لم تدم أكثر من ١١ شهراً، فبعد سحب الإتحاد السوفييتي قواته من إيران في العام نفسه، أفتقرت جمهورية مهاباد للدعم العسكري، وانخرمت شر الهزيمة من قبل القوات التابعة للجيش الإيراني، الأمر الذي أجبر المئات من المقاتلين الأكراد الذين كانوا آنذاك تحت قيادة (مصطفى بارزاني) للبحث عن مأوى لهم بالقرب من الحدود الإيرانية - العراقية، فلجأوا إلى الإتحاد السوفييتي في شهر يونيو / حزيران عام ١٩٤٧، حيث قضوا منفاهم هناك لمدة ١٢ سنة في بلاد ما وراء القوقاز وآسيا الوسطى، وصار الزعيم الكردي (مصطفى بارزاني) يلقب بـ (ماميدف أو محمدوف)، وقد تم إستقبال الأخير شخصياً من قبل جيورجي مالينكوف الذي إستلم السلطة كرئيس للإتحاد السوفييتي بعد وفاة جوزيف ستالين في العام ١٩٥٣، وقد أنتهت مرحلة منفى الزعيم الكردي (مصطفى بارزاني) وعاد إلى العراق في العام ١٩٥٨ منتهزاً فرصة إسقاط المملكة الهاشمية في العراق ونهاية الحكم الملكي بعد إنقلاب ١٤ تموز لعام ١٩٥٨ بقيادة عبد الكريم قاسم الذي كان يدعو آنذاك مع مجموعة من الضباط العراقيين إلى ضرورة القيام بتسوية سلمية بشأن القضية الكردية وعودة الأكراد من بلاد المنفى إلى وطنهم العراق^(٤). شرع الإتحاد السوفييتي منذ ستينيات القرن الماضي بإرسال وفود دبلوماسية إلى بغداد وكردستان العراق لأكثر من مرة، وذلك من أجل إيجاد حلول مناسبة وتسوية سلمية للعلاقات المتوترة بصورة دورية بين السلطة المركزية في بغداد والقوى السياسية الكردية، إذ كان الإتحاد السوفييتي يدعم

بقوة الأكراد في العراق لتأسيس دولة كردية ذات حكم ذاتي على الأراضي العراقية، وبالوقت نفسه كان الإتحاد السوفيتي يحرص على أن قيام هذه الدولة الكردية المستقلة لن يؤثر سلباً على وحدة الأراضي العراقية ككل^(٥).

منذ العام ١٩٧٠ توجه الأكراد بزعامة مصطفى البارزاني لطلب المساعدة والدعم العسكري من واشنطن في صراعهم مع نظام صدام حسين المدعوم من الإتحاد السوفيتي آنذاك. وبالرغم من دعم المخابرات المركزية الأمريكية للأكراد، وتوقيع إتفاقية الحكم الذاتي في العام نفسه، إلا أن الدعم الأمريكي لم يكن يشمل أي شيء يتجاوز الحكم الذاتي للأكراد داخل العراق^(٦).

ثانياً - روسيا الاتحادية

أصبحت الإدارة الروسية في الآونة الأخيرة تمنح إهتماماً كبيراً للأحداث التي تدور في داخل العراق وحوله، إذ أنها تسعى بقدر المستطاع على أن تستأنف العلاقات العريقة والوطيدة التي كانت تربطها بدولة العراق خصوصاً وبدول المنطقة عموماً، والتي فقدت لمعانها نتيجة لإختيار الإتحاد السوفيتي وما تبعه من تغيرات للأوضاع الداخلية في روسيا والنظام العالمي ككل، بالرغم من أن القضية الكردية، حسب تقديرات العلماء والمؤرخين والباحثين الروس، لا تمس المصالح الروسية بصورة مباشرة، إلا أنها تبقى قضية معقدة ومبهمه ذات أهمية وخطورة دولية ولا تقل شأنً عن القضية الفلسطينية، فإذا أخذنا بنظر الاعتبار المقدار المحتمل لأساليب العنف وسفك الدماء في حال تم إثارة نزاع مسلح جديد في المنطقة، وتم استخدام العامل الكردي في هذا النزاع، فسيتولد صراع نظير للصراع العربي - الإسرائيلي، وسيسود الدمار والخراب ومجازر القتل معظم أجزاء المنطقة^(٧).

إن تفعيل العلاقات بين الكرملين والأكراد في تسعينيات القرن الماضي كان مشروطاً بضرورة تبني أساليب جديدة للضغط على آنقرة، فمن ناحية تسعى موسكو لتقليص النفوذ التركي في القوقاز المتوتر من جراء الحرب الروسية - الشيشانية (١٩٩٤ - ١٩٩٦)، حيث تسعى آنقرة إلى شغل الفراغ الإستراتيجي الذي خلفه الإتحاد السوفيتي بعد إنهياره، فبدأت

تركيا بتوظيف الديناميكية الإقتصادية في القوقاز وإثارة العوامل العرقية واللغوية والدينية وجعلها ورقة ضغط ضد روسيا الاتحادية في تلك المنطقة، ومن ناحية أخرى كانت روسيا الاتحادية تسعى إلى تبني أسلوب جديد للتأثير على المساعي التركية المحتملة للحد من تدفق الناقلات النفطية عبر مضيق البسفور والدردنيل، إذ أن الدخل القومي الروسي يتركز بشكل كبير على تصدير النفط والغاز إلى أوروبا عبر المضائق التركية، فمنذ عام ١٩٩٤ أصبحت القضية الكردية تمثل المحور الرئيس للنزاع بين تركيا وروسيا، لا سيما بعد إعلان الأخيرة عن تنظيم مؤتمر دولي للأكراد، ومن ثم تبعته زيارة إثنين من النشطاء المبعدين من تركيا (علي ييجيت و ونكدان بولدان) للعاصمة الروسية موسكو في يناير/ كانون الثاني عام ١٩٩٥ وذلك بهدف دراسة إمكانية تأسيس برلمان كردي هناك في المنفى، يُذكر أن حزب العمال الكردستاني يخوض حرباً متواصلة منذ عام ١٩٨٤ ضد الجيش التركي في جنوب شرقي البلاد، وقد تسبب هذا الصراع في غضون الثلاثة عقود الأخيرة بمقتل أكثر من ٤٠ ألف شخصاً، وإجبار ٢ مليون آخرين بالنزوح والهجرة إلى خارج موطنهم، كما ساعد تعيين يفغيني بريماكوف كوزير للخارجية الروسية بقرار من الرئيس الروسي الأسبق بوريس يلتسن في يناير/ كانون الثاني عام ١٩٩٦ على إعادة تأسيس العلاقات الروسية - الكردية، إذ أن الخبير في شؤون الشرق الأوسط (بريماكوف) كان يحافظ على علاقات قوية وواسعة مع القادة الأكراد والذين تعامل معهم منذ ستينيات القرن الماضي، وكانت تربطه علاقات جيدة مع جلال الطالباني وعائلة البرزاني، وفي عام ١٩٩٨ أستقبل بريماكوف بصورة عاجلة في موسكو وفد تابع للحزب الديمقراطي الكردستاني المبعوث من أربيل، وقد كانت نتيجة اللقاء الإعلان عن إفتتاح ممثلية للحزب المذكور في العاصمة الروسية موسكو، وفي ظل الغزو الأمريكي وسقوط النظام في بغداد عام ٢٠٠٣، بدأت العلاقات الروسية - الكردية مرحلة جديدة، فقد كانت روسيا الاتحادية من الأوائل من خلال مبادراتها بفتح قنصلية عامة لها في أربيل، غير أن موسكو لم تستطع إستثمار علاقاتها مع أكراد العراق بنطاق واسع في العقد الاول من القرن الحالي، وذلك لأنها كانت تطمح بنفس الوقت للحفاظ على شراكتها مع تركيا وليس

لديها الرغبة في أن يفهم تقرّبها من الأكراد على أنه دعم للحركات ذات النزعة الانفصالية، وقام يفيغي بريمكوف بزيارة كردستان العراق في عام ٢٠٠٨ (بصفته نائباً لغرفة التجارة والصناعة لروسيا الاتحادية في ذلك الوقت)، وقد عبر الأخير خلال زيارته عن شدة أسفه بسبب ضعف الإستثمارات للشركات الروسية والتواجد الضئيل للنفوذ الروسي في الإقليم الكردي الذي كان يعيش مرحلة من التطور والإزدهار الكبير والسريع، فضلاً عن إستقرار الوضع الأمني بشكل ملحوظ في تلك المنطقة^(٨).

إن القضية الكردية كانت وما تزال وسيلة إستراتيجية تستخدمها القوى الإقليمية والعالمية أيضاً لممارسة الضغوط فيما بينها وتوظيفها كسلاح فاعل ومؤثر يعمل على تغيير المسار الإقتصادي أو السياسي أو العرقي لحكومة بلد ما. وتأتي كل من العراق وسوريا وتركيا في مقدمة تلك البلدان التي يقطنها الأكراد الطامحين لحكم ذاتي وسلطة مستقلة. إذ أن تجربة العراق في إقامة النظام السياسي الديمقراطي وفقاً لما جاء في الدستور العراقي وقوانينه النافذة، كانت قد أثارَت العديد من مواضيع الجدل والتوتر والخلافات حول موضوعات ومشاكل عدة كان أبرزها: شكل الدولة وطبيعة نظام الحكم فيها، وصلاحيات السلطات الإقليمية والمركزية، وكيفية توزيع الثروات والموارد الطبيعية، وغيرها من المسائل الخلافية والتحديات التي واجهها النظام السياسي العراقي، وما زال هذا الخلاف قائم بين ممثلي الكتل السياسية في الحكومة العراقية حول مسائل شتى منها: قانون الأقاليم، وتوزيع الإختصاصات والسلطات والصلاحيات بينها وبين الحكومة الاتحادية، وتنازعها في في أغلب الأحيان مع صلاحيات الحكومة المركزية^(٩).

إن انهيار الاتحاد السوفيتي وظهور القطب الأميركي الوحيد في العالم، وتغيير مفهوم السيادة والعلاقات الدولية والمصالح المشتركة بين الدول في ظل النظام العالمي الجديد المتمثل بـ (العولمة) قد فتحت آفاقاً جديدة على القضية الكردية، فلم تعد العلاقات الكردية أسيرة الدول التي تتقاسمها، بل طرقت أبواب أميركا وأوروبا، وبالتالي لم تعد القضية الكردية قضية محلية فحسب، بل تحولت إلى مسألة عالمية وأصبح اللاعب الكردي معروفاً فيها^(١٠).

فبالرغم من أن لروسيا الاتحادية تأريخ عريق ودور مهم في القضية الكردية كما أشرنا آنفاً، وتسعى لتحقيق التوازن في تعاملها مع الأكراد والحكومات المركزية في الشرق الأوسط وذلك سعياً منها للوصول إلى أهدافها في هذه المنطقة على أتم وجه، إلا أن هذا الباع الطويل في دعم الأكراد لا يلبي هذه الطموحات الروسية في تحقيق أهدافها، والتي غالباً ما تكون مرهونة بعوامل عدة في الوقت الحاضر، منها، تغير موازين المنطقة السياسية والإقتصادية، ومدى إستقرار العلاقات الروسية مع حكومات الدول في الشرق الأوسط كالعراق وتركيا وإيران. فمن المستبعد أن تدعم روسيا الأكراد ضد النظام الحاكم في سوريا، في حين أنه من الممكن أن تستخدم الورقة الكردية في تركيا عند اللزوم، وبإمكانها أن تمارس الضغط على الولايات المتحدة الأمريكية في العراق. كل ذلك يعتمد على طبيعة وحجم المصالح الروسية في المنطقة.

المبحث الثاني: الموقف الروسي من القضية الكردية وإستفتاء إقليم كردستان عام

٢٠١٧

أولاً - كردستان وروسيا الاتحادية: أطر التعاون في مرحلة الحرب ضد داعش

يرى محللون أن كل من روسيا الاتحادية وإقليم كردستان العراق يلتقيان بالوقت الحاضر في العديد من المصالح المشتركة، وترتبط هذه المصالح بصورة رئيسة بمكافحة الإرهاب والقضاء على تنظيم داعش، وكذلك التعاون في مجال الطاقة، ومن الجدير بالذكر، إن (نيجيرفان بارزاني)^(١) كان قد مارس دور كبير ومهم في إستمرار العلاقات الروسية - الكردية، ويعود الفضل الكبير إليه في تطوير هذه العلاقات في المجالات السياسية والإقتصادية والثقافية التي تربط الطرفين، ومن جانبها، كانت روسيا الاتحادية تعمل دائماً على دعم وحدة الأراضي العراقية، وبالوقت نفسه تؤيد وبشدة حق الأكراد بقيام منطقة حكم ذاتي واسع بتشكيلاته^(٢).

وفي سياق التعاون الروسي - الكردي، فقد ترأس نيجيرفان بارزاني وفد كردستان العراق في المنتدى الإقتصادي العالمي الذي أقيم في مدينة بطرسبورغ الروسية في صيف عام ٢٠١٦، وفي ميادين المنتدى المذكور، فقد جرت العديد من اللقاءات التي جمعت الوفد

الكردي مع وزير الخارجية الروسي سيرغي لافروف وكذلك وزير الطاقة الروسي ألكسندر نوفاك، وتم التطرق إلى الإنجازات الملحوظة في مجال النفط والغاز، الأمر الذي يعطي أساس للشكوك حول إقدام الشركات الروسية، وفي مقدمتها «غاز بروم»، نحو الإستثمار مستقبلاً في تنقيب وإستخراج المحروقات في إقليم كردستان العراق، ومن خلال مشاركته المباشرة في المنتدى المذكور^(١٣).

كان نيجيرفان بارزاني قد وقع العديد من إتفاقيات التعاون الثنائي مع الجامعات والمؤسسات التعليمية الروسية، إذ يُعد التعليم واحد من أهم الأولويات في منظور رئيس وزراء إقليم كردستان، وقد تضمنت هذه الإتفاقيات إمكانية دراسة الطلبة الأكراد المبتعثين من كردستان في روسيا الاتحادية، وكذلك الإستفادة من الخبرات الروسية في مجال التعليم عن طريق إرسال أساتذة ومحاضرين روس إلى كردستان لإلقاء المحاضرات والسيمينارات وممارسة التدريس في جامعات الإقليم، أما بالنسبة للتعاون الثقافي بين روسيا الاتحادية وكردستان فلا يقل أهمية عن سابقه، ففي ٢٩ يونيو / حزيران عام ٢٠١٦ في مدينة آرريل عاصمة كردستان العراق تم إفتتاح فرع لتنظيم إجتماعي روسي «منظمة الصداقة للشعوب الروسية - الكردية»، ويهدف هذا التنظيم إلى النشاط الثقافي في كل من روسيا الاتحادية وكردستان، إذ يقوم هذا النشاط على خلق وسائل جديدة للتفاهم وتعزيز العلاقات بين الشعبين الروسي والكردي^(١٤).

وفي الجانب الأمني، ترى روسيا الاتحادية أن للأكراد دور كبير ومهم في تطور الأحداث في العراق وسوريا من خلال مجابهة القوات العسكرية الكردية لتنظيم داعش الإرهابي، وفي هذا الصدد أشار بريماكوف إلى أن تنظيم الدولة الإسلامية يعد خطراً واقعياً وتهديداً حقيقياً لروسيا الاتحادية وجميع بلدان العالم، ومن خلال زيارة المندوب الخاص للرئيس الروسي فلاديمير بوتين في الشرق الأوسط ميخائيل بوغدانوف ولقائه برئيس وزراء كردستان العراق نيجيرفان بارزاني في شهر يناير / كانون الثاني عام ٢٠١٥ في آرريل، كانت قضية مكافحة الإرهاب العالمي والقضاء على داعش واحدة من أهم المواضيع المطروحة للنقاش خلال هذا

اللقاء^(١٥) . وتختلف موسكو من حيث طبيعة دعمها للأكراد لمحاربة داعش عن الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وألمانيا والمملكة المتحدة البريطانية، إذ قامت الدول الغربية المذكورة في بداية مارس / آذار عام ٢٠١٦ بتزويد الأكراد بالسلح، إلا أن روسيا الاتحادية لم تدعم كردستان عسكرياً بالسلح، وإنما قامت بعمل تعاون مشترك مع كل من بغداد وأربيل في مجال الإستخبارات العسكرية، علماً أن مسؤول دائرة العلاقات الخارجية في حكومة إقليم كردستان فلاح مصطفى بكر قد أدلى بتصريح صحفي لجريدة «إيزفستيا» الروسية، عقب إنتهاء لقاءه بنائب وزير خارجية روسيا الاتحادية ميخائيل بوغدانوف، الذي إشار به إلى إن السلطات في إقليم كردستان العراق كانت قد تقدمت بطلب منذ وقت قريب إلى روسيا الاتحادية، وذلك لكي تقوم الأخيرة بإبداء المساعدات الإنسانية والعسكرية اللازمة للإقليم^(١٦) .

ثانياً - الموقف الروسي من الطموح الكردي وإستفتاء إقليم كردستان

بعيداً عن تفاصيل الإستفتاء وأسبابه ونتائجه، سوف يقتصر هذا الجزء من دراستنا على بيان الموقف الروسي من هذا الإستفتاء في ظل وجود قوى إقليمية ودولية معارضة على الساحة الدولية كالولايات المتحدة الأمريكية التي وصفته على أنه «الخيار الخاطئ في الوقت الراهن»، ودول أخرى ترفض تماماً فكرة الإستقلال الكردي عن بغداد كتركيا وإيران. فقد اتخذت روسيا الاتحادية موقفاً أكثر دقةً من الاستفتاء، وذكرت في ذلك الوقت أنها "تحتزم التطلعات الوطنية للأكراد" وترى أن النزاعات بين بغداد وأربيل "يمكن، ويتعين حلها من خلال إجراء حوار بناء قائم على الاحترام يهدف إلى التوصل إلى صيغة تعايش داخل دولة عراقية واحدة يقبلها الطرفان"، على العكس تماماً من واشنطن التي قدمت تصاريح مماثلة جداً، إلا أنها حشدت أيضاً معارضة قوية ضد الاستفتاء، في حين ظلت موسكو محايدة بشكل علني، وذلك لأنها تدرك جيداً بأن هذا النهج سيمنحها قدراً كبيراً من المرونة مع الأكراد في الظروف المتوترة التي أعقبت التصويت^(١٧). فقد ذهبت موسكو مسرعةً لتوقيع العقود والصفقات ومنح القروض لحكومة كردستان من خلال زج لاعبيها الدولي المتمثل

بشركة (روسنفت) التي يسيطر عليها الكرملين لتنفيذ الإستثمارات النفطية وإنشاء خطوط أنابيب غاز جديدة وإنجاز مشاريع تكاد تصل تكلفتها إلى مئات الملايين من الدولارات، ومن هنا يتضح تناقض الموقف الروسي من الإستفتاء الكردي، علماً أن إيغور سيشن رئيس شركة روسنفت الروسية كان قد أكد على أن نية موسكو في إستثماراتها في إقليم كردستان تقتصر على التعاون الإقتصادي المجرد من أية دوافع أو مخططات سياسية، ومن المقرر إن تصل طاقة خط أنابيب الغاز المتفق عليها إلى ٣٠ مليار متر مكعب من صادرات الغاز سنوياً، وسيتم المباشرة بمد هذا الخط في عام ٢٠١٩ لخدمة إقليم كردستان، ويبدأ التصدير في عام ٢٠٢٠، كما شمل الإتفاق تطوير خمسة حقول نفطية وتوسيع البنية التحتية لخطوط الأنابيب التي تنقل النفط الخام عبر الأراضي التركية إلى الأسواق العالمية، وبذلك سوف يتمكن الإقليم من زيادة صادراته النفطية إلى مليون برميل يومياً في نهاية العقد الحالي بدلاً من ٦٥٠ ألف برميل يومياً في الوقت الراهن^(١٨). وقد عززت شركة روسنفت الروسية تعاونها مع الإقليم من خلال إقراضه مبلغ قدره ١,٢ مليار دولار في شهر فبراير / شباط من العام الماضي، وبذلك تصبح أول شركة نفط أجنبية تتعهد بصورة علنية بتمويل مسبق للصادرات، وبالتالي أصبحت موسكو أكبر ممول منفرد للإقليم لتصل إستثماراتها الإجمالية إلى نحو ٢,٨ مليار دولار، كما تتطلع شركة غازبروم نفث الروسية العملاقة لتوسيع أنشطتها في الإقليم بقيمة تتجاوز الأربعة مليارات دولار، لتمثل تحولاً كبيراً في الإقليم الذي تربطه علاقات وطيدة مع واشنطن منذ عام ١٩٩١^(١٩). ووفقاً لمصادر إعلامية فإن الإتفاق بين حكومة كردستان وشركة روسنفت الروسية قد تم توقيعه في ٢٠ من شهر أكتوبر / تشرين الأول عام ٢٠١٧، أي في ذروة الأزمة والتوتر بين بغداد وأربيل التي خلفها الإستفتاء في ٢٥ سبتمبر / أيلول عام ٢٠١٧^(٢٠). وبذلك أصبحت روسيا في الآونة الأخيرة واحدة من أكبر شركاء إقليم كردستان في مجالي النفط والغاز الطبيعي، إذ وقعت شركات النفط الروسية عقد بمبلغ ٤ مليار دولار للإستثمار في هذا المجال، وإن من ضمن المشاريع المخطط لها أيضاً بين الجانبين الروسي والكردي - بناء خط أنابيب عبر تركيا، وبالتالي فإن أنقرة لن تتجرأ على إستخدام

ورقة الطاقه ضد أربيل، إذ ستكون موسكو على الأغلب في مواجهتها، لاسيما أن ربيع العلاقات بين الأتراك والروس قد حل منذ وقت قريب، وذلك بعد تطبيع وتسوية معظم الخلافات العالقة بين روسيا وتركيا بشأن العديد من قضايا المنطقة وفي مقدمتها القضية السورية^(٢١).

وفي سياق هذا الموضوع، حرصت الباحثة والمحللة الإيرانية "عفيفة عابدي" على إعداد تقرير تحليلي، صدر عن "مركز الدراسات الإستراتيجية"، التابع لمجمع تشخيص مصلحة النظام الإيراني، والذي أشارت به إلى أنه لا توجد مصالح روسية مُباشرة من دعم أو رفض إستقلال كردستان العراق، وأعزت الباحثة ذلك إلى أسباب عدة، لعل من أبرزها^(٢٢):

١. لا تمثل مسألة الأكراد موضوع مُنافسة بين روسيا وأميركا، وبالتالي لا يمكن اعتبارها كارت رايح لأي من الطرفين.

٢. يعجز الروس عن تحديد الأطراف ذات المصالح المُشتركة في عملية دعم أو رفض استقلال الأكراد.

٣. لا يسعى الأكراد للحصول على دعم موسكو.

٤. تمكنت روسيا تحت العقوبات الغربية من الحصول على نصيب من طاقة الإقليم. هذه الأسباب كانت سبباً في عدم اتخاذ روسيا أي موقف رسمي حيال الاستفتاء على استقلال كردستان العراق.

إستناداً لما تقدم، يمكن القول أن أهمية إقليم كردستان المتمثلة بموقعه الجيوإستراتيجي المهم وثرواته الطبيعية والنفطية الهائلة جعلت منه مادة خام يطمح لإستخدامها الكثير من القوى العالمية والإقليمية، ناهيك عن دور الأكراد الفاعل في المنطقة، الأمر الذي دفع روسيا الإتحادية ومحاولتها التقرب إلى هذه المنطقة في ظل وجود توتر بين الإقليم والحكومة المركزية في بغداد. فروسيا تحاول بقدر الإمكان أن تحرص على علاقتها مع بغداد وبنفس الوقت لا تهمل مصالحها وإستثماراتها المرتبطة مع حكومة إقليم كردستان.

الخاتمة:

على الرغم من تقلص النفوذ الروسي في العراق منذ عام ٢٠٠٣، إلا إن روسيا الاتحادية، كما هو الحال بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية والدول الإقليمية المجاورة كتركيا وإيران، تؤدي دور مؤثر في تغيير التوازنات السياسية في العراق من خلال توظيف خبراتها التقنية والبشرية في مجالات عدة ولعل من أبرزها وأكثرها فاعلية: مجالي الطاقة والآليات العسكرية، فجدور التعاون بين العراق وروسيا تعود إلى بداية أربعينيات القرن الماضي، ولا ترجح السياسة الروسية الكفة العربية على الكردية أو العكس، بل إنها تحرص دائماً على تأسيس علاقات وطيدة مع الحكومة المركزية في بغداد وحكومة كردستان في أربيل تحت شعار المصالح والاستثمارات الروسية قبل وأهم من أي شيء. في ختام الدراسة تم التوصل إلى الإستنتاجات الآتية:

١. إن إستفتاء إقليم كردستان العراق بالانفصال ليس بقضية محلية بحتة، ولا يُعد كبدية أو محاولة لتقسيم العراق فقط، وإنما يُثير تهديدات مُشابهة لدول الجوار العراقي. وتؤكد هذا الطرح موجة ردود الأفعال الواسعة والرافضة للإستفتاء على المستويين الداخلي والخارجي.
٢. يُعد كل من روسيا الاتحادية والمجتمع الكردي المساهم المهم في جيوبوليتيكا الشرق الأوسط، إذ إن الشراكة الحيوية التي تربطهم في مجالات الإقتصاد والطاقة والأمن تتطور بصورة سريعة ومثمرة، فضلاً عن إن الخلفية التاريخية تزيد من قوة وصلابة هذه الشراكة.
٣. أصبحت الورقة الكردية خلال العقد الأخير إحدى أهم وسائل التأثير والضغط الروسي في منطقة الشرق الأوسط. وخير دليل على ذلك، الإستثمارات الروسية في شمال العراق في مجال الطاقة، وتوظيفها لأكبر الشركات النفطية في روسيا (روسنفت) التي تعود إلى الكرملين، وذلك من أجل فرض الوجود الروسي في هذه المنطقة التي تُمهد مصالح الكثير من الدول الإقليمية المتاخمة، فضلاً عن إمكانية ضرب المصالح الأمريكية والحد من فاعليتها في المنطقة المذكورة.

٤. تحرص موسكو على تعزيز وتطوير علاقاتها مع إقليم كردستان دون أن تعرض للخطر مصالحها المشتركة التي تربطها بالسلطة المركزية في العراق.

٥. تتجلى الشراكة بين روسيا الاتحادية وإقليم كردستان في السنوات الأخيرة بصورة واضحة ورئيسة بالتعاون الثنائي والدولي في مجالات عدة، لعل من أبرزها مجال الطاقة وقضايا مكافحة الإرهاب في المنطقة.

٦. تسعى حكومة إقليم كردستان إلى تعزيز وتطوير علاقتها في مختلف المجالات مع روسيا الاتحادية، وذلك لضمان حليف قوي لها في المنطقة، فهي ترى في روسيا الشريك الذي بإمكانه أن يدفع خطر الدول المجاورة عن الإقليم الكردي، وكذلك بإمكان روسيا أن تمارس دور مهم في مصير القضية الكردية من خلال تعاطفها معها وتأييدها لقرارات حكومة كردستان.

٧. تدرك روسيا الاتحادية دائماً مدى أهمية وفاعلية الأكراد المنطقة، لاسيما في مرحلة مكافحة الإرهاب والقضاء على تنظيم الدولة الإسلامية في العراق وسوريا وذلك بحكم الدور الكبير الذي قدمته القوات العسكرية الكردية وسعيها للحفاظ على أمن الإقليم والمنطقة ككل، حيث أن حكومة الإقليم تدرك جيداً الخطر الذي يحيط بها في حال تعرض إحدى الدول المجاورة كتركيا وسوريا للإرهاب، وبالتالي فإن ذلك سيؤثر سلباً على الأمن القومي داخل أراضي إقليم كردستان العراق، مما يدفع الإقليم إلى إشراك إمكانياته السياسية والعسكرية لحفظ أمن المنطقة.

٨. على الرغم من تأكيدها على وحدة الأراضي العراقية وضرورة إيجاد حل للقضية الكردية من خلال الحوار السلمي بين بغداد وأربيل، لم تعارض روسيا الاتحادية بصورة واضحة ومباشرة إستفتاء كردستان في أربيل وطموح الأكراد بالانفصال عن الحكومة المركزية في بغداد، على العكس من موقف الدول الغربية بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية التي طالبت بإلغاء الإستفتاء، وكذلك الدول الإقليمية كتركيا وإيران التي عارضت بشدة الإستفتاء المذكور وحذرت بالوقت نفسه حكومة إقليم كردستان من تبعاته المستقبلية.

٩. يوظف الكرملين الشركات الروسية العملاقة للإستثمار في إقليم كردستان العراق، وذلك بهدف تعزيز التواجد والنفوذ الروسي من خلال الإنتفاع من الورقة الكردية في المنطقة، فضلاً

عن الأهمية الاقتصادية لهذه الإستثمارات والتي تدر أرباحها في الدخل القومي لروسيا الاتحادية، ومن ثمّ تعمل على إنعاش الإقتصاد الروسي الذي يعاني من العقوبات الأمريكية والغربية المفروضة على روسيا الاتحادية منذ ضمها لشبه جزيرة القرم في النصف الثاني من العام ٢٠١٤.

الهوامش والمصادر

^١ - ترويس الأسماء: أي جعلها روسية، وذلك بمنح ألقاب عوائل روسية لأفراد تعود جذورهم إلى قوميات أخرى (غير الروسية).

^٢ - إيغور ديلانوييه: الأكراذ: نجح النفوذ الروسي في الشرق الأوسط؟، سلسلة المطبوعات الإلكترونية الصادرة عن مركز روسيا / الدول المستقلة حديثاً (Russia / NIS)، العدد (٨٥)، المعهد الفرنسي للدراسات الدولية (IFRI)، حزيران (٢٠١٥)، ص ٧.

^٤ - ملة مصطفى بارزاني: مؤسس الحزب الديمقراطي الكردستاني، ووالد الزعيم الحالي للحزب نفسه (مسعود بارزاني).

^٤ - بارخوداريانتس ألكساندر: القضية الكردية في السياسة الخارجية لروسيا والدول الغربية في ظل التصدي لتنظيم (الدولة الإسلامية)، المجلة الدورية لجامعة موسكو، العدد (١)، كلية السياسة الدولية / جامعة موسكو الحكومية بإسم م.ف. لومونوسوف، ٢٠١٥، ص ٩٩.

^٥ - المصدر نفسه، ص ١٠٠.

⁶ - Joost Hiltermann, International Crisis Group, 31/10/2017, What Did the Kurds Get Out of the Referendum? The site is available at the following link: <https://bit.ly/2T1GGqJ>

^٧ - إيفانوف ستانيسلاف ميخائيلوفيتش: كردستان العراق في المرحلة المعاصرة (١٩٩١ - ٢٠١١)، سلسلة كتب معهد الإقتصاد العالمي والعلاقات الدولية، مؤسسة (أكاديمية العلوم الروسية)، موسكو، ٢٠١١، ص ٧٦.

^٨ - إيغور ديلانوييه، مصدر سبق ذكره، ص ١١ - ١٢.

^٩ - شيماء معروف فرحان: إشكالية العلاقة بين الحكومة الاتحادية وحكومة إقليم كردستان، مجلة المستنصرية للدراسات العربية والدولية، العدد (٦٢)، مركز المستنصرية للدراسات العربية والدولية/ الجامعة المستنصرية، ٢٠١٨، ص ٣٧.

^{١٠} - فرياد رواندزي: علاقة الكرد بالقوى الأجنبية.. ضرورة لحماية الوجود، شبكة الجزيرة الإعلامية، الموقع متوفر على الرابط الآتي: <https://www.aljazeera.net/specialfiles/pages/c64bea6f-919d-453e-a544-4f6cad7725f8>

^{١١} - نيجيرفان بارزاني: حفيد الزعيم الكردي ومؤسس الحزب الديمقراطي الكردستاني مصطفى بارزاني. وقد باشر نيجيرفان بارزاني مهامه كرئيس لوزراء حكومة إقليم كردستان منذ يونيو / حزيران عام ٢٠١٤، وكان له أثر ودور

كبير في التطور الإستراتيجي والإقتصادي والأمني للبلاد. للمزيد من المعلومات حول السيرة الذاتية لـ (نيجيرفان بارزاني) الإطلاع على الرابط الآتي: <https://bit.ly/2IjA15Y>

١٢- مصطفى دانار أبو بكر: بعض الأبعاد في العلاقات الروسية - الكردية في ظل أزمة الشرق الأوسط، مجلة (Filo Ariadne) العلمية الإلكترونية، العدد (٤)، ٢٠١٦، ص ٤ - ٧ .

١٣- المصدر نفسه .

١٤- المصدر نفسه .

١٥- المصدر نفسه .

١٤- المصدر نفسه .

١٧- أنا بورشفسكايا، بلال وهاب: «حكومة إقليم كردستان» تلجأ إلى موسكو بحثاً عن دولة راعية جديدة، معهد واشنطن، ٢٠١٨/٦/١٤، الموقع متوفر على الرابط الآتي: <https://bit.ly/2NMk2vj>

١٨- مسلم عباس، هل تعارض روسيا إستفتاء كردستان؟ ما لا تعرفه عن الإستثمارات الروسية في الإقليم، شبكة النبأ المعلوماتية، ٢٠١٧/٩/٢١، الموقع متوفر على الرابط الآتي:

<https://annabaa.org/arabic/economicreports/12562>

١٩- أمجد زين العابدين طعمة، نوار جليل هاشم: إقليم كردستان العراق في السياسة الأمريكية - قراءة إستشرافية، وقائع المؤتمر الدولي الثالث للقضايا القانونية (ILIC2018)، كلية القانون / جامعة إيشك - أربيل، ٢٠١٨/٥/١٠، ص ١٥٠ .

٢٠- هكذا تلعب روسيا في ورقة النفط في كردستان العراق، العربية، ٢٠١٨/٤/٢٢، ١٠:٤٢، الموقع متوفر على الرابط الآتي: <http://ara.tv/mh3rw>

٢١- نيلجون تيكفيدان غوموش، إستفتاء الأكراد في عشرة نقاط، مشروع أنترنت لوسائل الإعلام الأجنبية باللغة الروسية ИноСМИ.Рy، ٢٠١٧/٩/٢٣، الموقع متوفر على الرابط الآتي: <https://bit.ly/2BO8rbu>

٢٢- حمد بناية: روسيا وإستفتاء كردستان العراق .. أسباب حرص موسكو على الوقوف في المنطقة الرمادية!، صحيفة كتابات، ٢٠١٧/٨/٨، الموقع متوفر على الرابط الآتي: <https://bit.ly/2U5GeEb>